المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الملك سعود
كرسي القرآن الكريم وعلومه



جهود المغاربة في الانتصار للنص القرآني

بحث مقدَّم
للمؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية
٦/٤/١٤٣٤هـ - ١٦/٢/٢٠١٣م

إعداد
د. محمد عبد الحليم بيشي



جهود المغاربة
في الانتصار للنص القرآني

بحث مقدَّم

للمؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية

٦/٤/١٤٣٤هـ - ١٦/٢/٢٠١٣م

إعداد

د. محمد عبد الحليم بيشي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

السيرة الذاتية

الاسم: **محمد عبد الحليم بيشـــي**

البريد الإلكتروني: halimbichi@ymail. com

الوظيفة الحالية: أستاذ محاضر أ- دكتور- قسم العقائد والأديان- كلية العلوم الإسلامية - جامعة الجزائر١، الجمهورية الجزائرية.

الأعمال العلمية:

- حرية المعتقد في الإسلام دراسة تأصيلية، رسالة ماجستير في العقيدة والفكر الإسلامي- جامعة الجزائر-
- الردة بين حرية المعتقد و المواثيق الدولية الحديثة لحقوق الإنسان، رسالة دكتوراه-جامعة الجزائر-.
- الغرب الاستعماري في فكر مالك بن نبي: مجلة الصراط، كلية العلوم الإسلامية، العدد رقم ٠٨ سنة ٢٠٠٤.
- شرعية المشاركة في سلطة غير إسلامية: مجلة الصراط، كلية العلوم الإسلامية، العدد رقم ١٦ سنة٢٠٠٨.
- التجديد في المقاصد عند الدكتور طه جابر العلواني، مجلة البصيرة للدراسات الإسلامية، العدد٠٩، سنة٢٠١٠.
- العذاب الأخروي بين الأبدية والتوقيت عند المسلمين، مجلة الصراط، كلية العلوم الإسلامية، العدد رقم ٢١
- الإيمان والنظر في المعجزة، جدلية الضرورة واليقين، مجلة الصراط، العدد ٢٣، ٢٠١١.

- التكفير في المسيحية، الجذور والمظاهر، أعمال الملتقى الدولي حول ظاهرة التكفير بالمدينة المنورة ٢٠١١.
- الحريات العامة في العهد النبوي، الملتقى الدولي الإسلام والحرية، القيروان، تونس ٢٠١١.
- آية السيف قراءة في مسارات الدعوة الإسلامية. أعمال الملتقى الدولي الإسلام في مواجهة العنف. تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية٢٠١٢.
- تفاسير الحديث النبوي في المغرب الإسلامي" الهند جامعة كيرالا، قسم اللغة العربية. ٢٠١٢/٠٢/١٧.

أهم المؤلفات :

- نظرية الاستعمار والثورة عند مالك بن نبي.
- حرية المعتقد في الإسلام دراسة تأصيلية.
- الإمام ابن زكري التلمساني وآثاره العقدية.
- الردة بين حرية المعتقد والمواثيق الدولية لحقوق الإنسان.
- المشروع الإصلاحي عند الإمام المغيلي، تحقيق كتاب الإبداء والإعادة لعمر بن قدور الجزائري.

ملخص البحث

شكل الجناح المغربي للعالم الإسلامي حصناً منيعاً في الانتصار للنص القرآني وخدمته قراءة وتفسيراً و تأصيلاً منذ وطئت أقدام الصحابة والتابعين أراضيه، وكان لمدارس التعليم والمساجد الدور الأهم في ترسيخ القراءات القرآنية وخاصة قراءة أبي عمرو البصري وحمزة الكوفي. إلا أن القراءة التي سادت هي قراءة نافع المدني لارتباط المالكية بميراث المدينة المنورة، وعليه فقد أسهم المغاربة والأندلسيون في التأسيس العلمي للقراءات، القراءات عامة وقراءة نافع خاصة وذلك بجهود أمثال أبي عمرو الداني والشاطبي ومكي بن أبي طالب. كما برع المغاربة في خدمة النص القرآني في الرسم، وصارت كتبهم المنهجية مرجعية في دور ومعاهد القرآن الكريم.

ومع أن المغرب تميز بواحدية ثقافية مذهبية طوال تاريخه الأوسط والمتأخر إلا أنه لم يعدم وجود نحل ومذاهب مناوئة لأهل السنة، فكان الصراع المرير مع الشيعة الإسماعيلية في قضايا التأويل وحفظ القرآن من التحريف، ثم كان الصراع مع نحلتين بربريتين ابتدعتا قراءات معارضة، هما نحلتا برغواطة وغمارة، ولذلك أبدع المغاربة طرقاً عديدة في حفظ القرآن مثل الحزب الراتب والقراءة الجماعية، والابتداء في التعليم بحفظ القرآن دون سواه.

كما جاء الإسهام المتأخر للمغاربة في تفسير القرآن الكريم مع ابن العربي وابن عطية وابن جزي ؛ ليكسر حدة التقليد المذهبي الذي كان ينأى عن الخلاف حتى لا تتسرب المذاهب الأخرى إلى حوزة المغرب والأندلس. ثم افتتح الدرس التفسيري من جديد مع النهضة الإسلامية بمفسرين كبار أمثال

ابن باديس الجزائري والطاهر بن عاشور التونسي والذين أسهموا بجد في إحلال النص القرآني مكانته السامقة في المعركة ضد العلمانية وبقايا التصوف الحلولي، والتقليد المذهبي الأصم.

والجهد المغاربي والأندلسي في الانتصار للنص القرآني يجدد دلائله في الحصانة الثقافية التي يحياها المغرب الإسلامي والتي نأت به كثيراً عن الفرقة والاختلاف والانسلات للمذاهب المنحرفة.

إن الإلمام بجهود المغاربة في خدمة النص القرآني من الصعوبة بمكان، وذلك أن هذا الجهد العريض يتطلب عديد الدراسات والبحوث والمسح للموسوعات والتراجم. ولكن هذا هو بعض التوصيف لفهم تطور علوم القرآن والقراءات والرسم والتفسير في هذا الجزء الكبير من العالم الإسلامي.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

وبعد، عرف المغرب الإسلامي بعدوتيه المغربية والأندلسية حراكاً علمياً متنامياً منذ عرف الإسلام ديناً، حيث أشرب روحه وتمثل قيمه واستظل بشريعته الخاتمة المهيمنة، إذ أطبق المغاربة على الإسلام اعتناقاً واتباعاً وانتصاراً، وعلى اللغة العربية واللسان المبين خدمة ونطقاً وتبياناً، حيث انمحت الديانات السابقة، وانزوت اللغات الأخرى حتى قيل إن الإسلام غرّب وعرّب. بل زاد الأمر نصوعاً عندما ضمرت الطوائف المنحرفة والفرق المخالفة لأهل السنة والجماعة، فلم يبق إلا مذهب مالك بن أنس عالم دار الهجرة مذهباً متبوعاً.

ولم تكن هذه الوحدة المذهبية التي اتبعت بوحدة روائية في القراءة وهي رواية نافع المدني بضربة لازب. بل هي محصلة جهود عديدة ومناظرات ومصابرات ومرابطات من علماء المالكية ضد بقايا الوجود الإباضي ثم الإسماعيلي الشيعي، ولم يطل القرن الرابع الهجري حتى ترسخت أصول هذه الوحدة التي تتخذ من النص الشرعي قرآناً وسنةً مرجعاً لا محيد عنه في الفتوى والعمل والتخريج.

ولكن هذه الصيرورة لم تسلم من بعض الهنات مثل هيمنة المتن الفقهي المجرد من الدليل على الحياة العلمية، مما كان يستوجب خروج صيحات مصححة لمسار الاستدلال في المدونات المالكية موجبة لإحلال النص القرآني مكانته المهيمنة في المنظومة الفقهية، وهي صيحات

دافع عنها ابن العربي الإشبيلي والشاطبي من المتقدمين، وابن باديس والطاهر بن عاشور من المتأخرين.

كما أن حضور الاتجاهات المنحرفة بين الفينة والأخرى كان دافعاً للاحتماء بالنص القرآني ضد تلك التيارات التي أطلت برؤوسها في الاتجاه الباطني الإسماعيلي، أو الصوفي الحلولي، وحتى في القرآنات البربرية المعارضة التي انتحلتها فرق برغوطة وغمارة في المغرب الأقصى.

كما سنشهد العناية البالغة من المغاربة بالنص القرآني في موضوع القراءات وضبط المصحف في أعمال أمثال أبي عمرو الداني والشاطبي وغيرهم، وكذا في الجهود اللغوية والبلاغية الخادمة للنص عند ابن مالك وأبي حيان وابن عاشور.

وسنعتمد في هذه الورقة المنهج الوصفي الاستقرائي لتلك الجهود وأثرها في إحلال النص القرآني مكانته وهيمنته من حيث عناية المغاربة به خدمةً وتفسيراً وانتصاراً، وذلك من خلال الآتي:

- أولا: توطئة تاريخية.
- ثانيا: القراءات القرآنية في المغرب الإسلامي المسار والقرار
- ثالثا: التأسيس العلمي لقراءة نافع المدني.
- رابعا: جهود المغاربة في الانتصار للقرآن وجدل المخالفين.
- خامسا: جهود المغاربة في تفسير القرآن الكريم.

أولا: توطئة تاريخية

يشكل المغرب الإسلامي جناحاً مهماً في عالم المسلمين يشمل المغارب الثلاث الأدنى (ليبيا وتونس)، والأوسط (الجزائر)، والأقصى (بلاد المغرب والسوس) وكذا العدوة الأندلسية وجزر البحر المتوسط (صقلية وميروقة)، كما ظلل أيضا بثقافته بلاد السودان الغربي وإفريقيا جنوب الصحراء أي حوض النيجر وصحراء شنقيط.

هذه المساحة الواسعة من الأراضي والتي احتضنت أجناساً عديدة وأعرافاً كثيرة انساب إليها الإسلام بسلام وتؤدة، ورسخ بأقدامه في تربتها واشتدّ سوقه فأغاظ الكفار بما أورق من أغصان وأفنان، وبما أينع من ثمار زاهية وقطوف دانية توسطتها الكلمة الطيبة الخالدة.

دخل الإسلام إلى بلاد المغرب في القرن الأول الهجري[1] بجهود الصحابة الأوائل أمثال عبد الله بن أبي السرح العامري[2] ، في عهد

---

(١) انظر في فتح إفريقية ابن خلدون عبد الرحمان : تاريخ ابن خلدون، ط، ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٢. ج٢ ص٥٤٧/ ابن الأثير عز الدين: الكامل في التاريخ، ط٦، بيروت. دار الكتاب العربي. د. ت. ج٣ص٤٥.

(٢) عبد الله بن سعد العامري القرشي، صحابي أسلم ثم ارتد وتاب وعاد إلى الإسلام سنة ثمان للهجرة. ولي حكم مصر في عهد عثمان، فتح برقة وتونس، وقاد معركة ذات الصواري البحرية ضد الرومان. توفي سنة ٥٩هـ. انظر: ابن الأثير عزا لدين: أسد الغابة في معرفة الصحابة(ت خالد طرطوشي) ط١، بيروت، دار الكتاب العربي، ٢٠٠٦. رقم٢٩٧٧ج ٣ص٧٣/ ابن عبد البر القرطبي: الاستيعاب في أسماء الأصحاب، القاهرة، مكتبة مصر-د، ت-ج٢ص١٨٤/ ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة. بيروت، دار إحياء التراث العربي د-ت. ج٤ص٧٨/الذهبي شمس الدين: سير أعلام النبلاء (اعتناء محمد بن عيادي بن ==

الخليفة عثمان ﷺ ثم استكمل فتح المغارب تباعاً على يد عقبة بن نافع الفهري[1]، وحسان بن النعمان[2] الذي به:"استقامت إفريقية كلها وقطع الله عز وجل مدة أهل الكفر منها وصارت دار إسلام"[3]، ثم تلى ذلك فتح الأندلس على يد طارق بن زياد[4] وموسى بن نصير[5].

وجاء إسلام أهله من البربر تباعاً فتوطدت الشريعة الإسلامية وحلت اللغة العربية، حيث انمحت كل الملل والنحل السابقة من وثنية ونصرانية

==

عبد الحليم). ط١، القاهرة، مكتبة الصفا، ٢٠٠٣. ج٣ص٣٣٣.

(١) عقبة بن نافع الفهري القرشي، ولد في حياة النبي ﷺ، في صحبته خلاف. ولي فتح إفريقية والمغرب، أسس مدينة القيروان وبها مسجده الجامع. استشهد في واقعة تهودة ضد البربر والرومان سنة ٦٣هـ. انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة رقم٣٧٢٣ج٣ص٣٧٢/ الاستيعاب ج٣ص٥٩/ الإصابة في تمييز الصحابة ج٤ص٥٢٧.

(٢) حسان بن النعمان الغساني استكمل فتح المغرب وهزم كاهنة البربر ملكة جراوة. وبه توطد الإسلام وذلك سنة ٨٢هـ. انظر عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام. ط٧، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٩٥. ج١ص١٣٧.

(٣) المالكي: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية. (ت حسين مؤنس) ط١، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥١. ج١ص٣٨.

(٤) طارق بن زياد البربري، فاتح الأندلس، توفي سنة ١٠٢هـ. انظر المراكشي عبد الواحد: المعجب في تلخيص أخبار المغرب (ت صلاح الدين الهواري)ط١، صيدا، المكتبة العصرية، ٢٠٠٦. ص١٦/الحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨. رقم٥١٩ص٢٤٨.

(٥) موسى بن نصير (ت٩٧هـ) والي إفريقية وفاتح الأندلس. انظر جذوة المقتبس رقم ٧٩٣ص٣٣٨/ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٤ص١١٢.

ويهودية، فلم يبق منها شيء يذكر على عكس المشرق الإسلامي، ولهذا قالوا :إن الإسلام غربَّ وعرَّب.

منذ استقرار الإسلام بالمغرب والأندلس أُنْشِئت مدن جديدة كالقيروان[1] على يد عقبة بن نافع، وتاهرت على يد الرستميين[2]، وفاس بالمغرب الأقصى على يد إدريس بن عبد الله مؤسس دولة الأدارسة[3]، وكذا القلعة وبجاية في الجزائر على يد الحماديين[4]، ومدينة مراكش على يد المرابطين الملثمين[5].

---

(١) في تمصير القيروان أنظر: الدباغ: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان(مع ذيل ابن ناجي)، ط٢، تونس، المكتبة العتيقة، ١٩٩٣. ج١ص٩٩/أبو العرب القيرواني: طبقات علماء إفريقية وتونس(ت علي الشابي ونعيم حسن اليافي)تونس الدر التونسية للنشر، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٥. ص٥٨/موسى لقبال: المغرب الإسلامي م بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج. الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨١. ص٣١/هشام جعيط: تأسيس الغرب الإسلامي، ط١، بيروت، دار الطليعة، ٢٠٠٤. ص١٦٠.

(٢) انظر الجيلالي: تاريخ الجزائر العام. ج١ص١٦٥/إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية (١٦٠-٢٩٦هـ)دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية. ط٢، القرارة، نشر جمعية التراث، ١٩٩٣. ص٨٥.

(٣) انظر تاريخ ابن خلدون ج٤ص١٨.

(٤) في الدولة الحمادية الجزائرية وآثارها العمرانية انظر: تاريخ ابن خلدون ج ٦ص٢٠٢/مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث. الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، د، ت. ج٢ص٢٣٠/رشيد بورويبة: الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها. الجزائر، الطباعة الشعبية للجيش، ٢٠٠٧. ص١٥٢

(٥) في تمصير مراكش انظر المراكشي: المعجب ص٧٦/: تاريخ ابن خلدون ج
==

وبعثت مدن قديمة لبست حلة الإسلام كقرطبة واشبيلية بالأندلس، وسبتة وطنجة بالمغرب، وبونة وقسنطينة وبسكرة في الجزائر. وطرابلس في ليبيا، فصارت حواضر علمية زينتها المساجد والربط والمدارس، وبعثتها حلق العلم والرواية فوصلت حبلها بمواطن العلم في المشرق.

والذي يهم موضوعنا هو النص الشرعي قرآناً، فكيف كان الانتقال ثم الاستقرار ثم الانتصار على المذاهب غير السنية التي ملأت أرجاء المغرب، انتصار توّج بوحدة مذهبية نادرة فرضها مذهب إمام دار الهجرة مالك بن أنس (١٧٩هـ) ، وانتصار النص الشرعي على غيره من مصادر المعرفة الدخيلة والمنقوصة. وإذا كان أمر مرجعية القرآن الكريم محسوماً فيه لدى كل المذاهب التي دخلت المغرب من الخوارج إباضية وصفرية، فإن الأمر لم يكن سهلاً مع الإسماعيلية الشيعية، والنحل المنحرفة الأخرى، وحتى مع بعض اعوجاجات التقليد المذهبي الصرف، أو مع بعض التأويلات الصوفية الفلسفية السقيمة.

إن الإطباق على مذهب فقهي واحد هو مذهب الإمام مالك، وعقيدة واحدة هي عقيدة أهل السنة والجماعة، وقراءة واحدة هي قراءة نافع. هي السمة التي ميزت هذا المسار.

فما هو السر في هذه الواحدية الفقهية والعقدية والقرآنية التي نأت به كثيراً عن احتراب المذاهب وتطاحن الطوائف في المشرق؟ وهل كانت

==

٦ص٢١٨.

هذه الصيرورة إلى الواحدية ضربة لازب؟ وهل مثلت الواحدية عامل قوة أم مؤثر ضعف في الإسهام في المنتج العلمي الذي يتملّى الخلاف؟

اختلفت تفسيرات الباحثين قديماً وحديثاً للواحدية الثقافية التي طبعت المغاربة والأندلسيين، وبما أن موضوعنا هو النص القرآني قراءة وتفسيراً فلا بد من فهم واستكناه الارتباط بميراث المدينة المنورة وحده فقهاً وقراءة وعقيدة دون غيرها، ولماذا كان الانتصار في هذا الأخير لمذهب مالك دون سواه.

ثانيا: القراءات القرآنية في المغرب الإسلامي المسار والقرار.

يمكن الرجوع بموضوع حضور القراءات القرآنية والدرس التفسيري وعلوم القرآن في إفريقية والمغرب الإسلامي إلى تركم جهود عديدة ابتدأت واستكملت بالآتي:

١ - دخول الصحابة:

كان انثيال الصحابة لبلاد المغرب الإسلامي محدوداً بفترة الفتوح الإسلامية التي استمرت مدداً عديدة. حيث وفد على المغرب جملة من الصحابة في فتح إفريقية الأولى على يد عبد الله بن أبي السرح سنة(٢٧هـ)، وكان من جملة هؤلاء العبادلة الأربعة عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وكذا سلمة بن الأكوع، وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وغيرهم[١].

ولا شك في أن هؤلاء الجلّة نثروا وروداً من عبق العلم في تلك الربوع، وإن لم يطل مقامهم فإن أثر تلامذتهم من التابعين سيكون وفيراً.

ولا ريب أن هؤلاء الصحابة تركوا أثراً في الإقراء وإن لم يطل بهم الأمر، ولكن بعض الصحابة طال بهم المقام واستقروا أمثال سفيان بن

(١) انظر في الصحابة الداخلين : أبو العرب القيرواني: طبقات علماء إفريقية وتونس ص٧٣-٧٨

وهيب (٨٢ هـ)[١] الذي روي عنه غياث بن أبي غياث أنه:" يمر بنا ونحن غِلْمة بالقيروان فيُسَلِم علينا ونحن في الكُتاّب"[٢] ، وكذلك الصحابي عبد الرحمن بن الأسود[٣].

٢- طبقة التابعين :

وهي من الكثرة بمكان حيث تواجد وتوفي بإفريقية أفذاذ كُثُر مثل معاوية بن خديج السكوني[٤]، وعقبة بن نافع الفهري باني مسجد القيروان[٥]، وهما فاتحان مشهوران بالمغرب العربي، وقد ذكروا لهما صحبة، وكذلك التابعي حنش الصنعاني(١٠٠هـ)[٦] الذي استقر بالقيروان

---

(١) سفيان بن وهيب، دخل إفريقية مرتين سنتي ٦٠و٧٨. وهو صحابي مشهور عند العجلي وابن حبان. انظر أسد الغابة. رقم ٢١٣٠ج٢ص٣٠٣/الاستيعاب ج٢ص٣٤/الإصابة ج٣ص١٣١.

(٢) معالم الإيمان ج١ص١٥١/الاستيعاب ج٢ص٣٤.

(٣) انظر: ابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١. ج٢ص٤٨٨/معالم الإيمان ج١ص١٦١/الإصابة ج٢ص٣٨٢.

(٤) معاوية بن خديج مختلف في صحبته. انظر أسد الغابة رقم ٤٩٨٢ ج٤ ص٣٠٢/ الاستيعاب ج٣ص١٨٠/ الإصابة ج٦ص١٤٧.

(٥) يوسف حوالة: الحياة العلمية في إفريقية المغرب الأدنى منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري ٩٠، ٤٥٠هـ، منشورات جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ٢٠٠٠. ج١ ص٢٠٢-٢١١.

(٦) في ترجمة حنش الصنعاني انظر: تهذيب التهذيب ج١ص٥٠٣/ /جذوة المقتبس رقم٤٠٣ص٢٠١/ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨. رقم ٣٩١ص١٢٥.

وكان له بها مسجد، وكان قد تتلمذ لابن عباس، وروي أنه له مصحفاً، وعليه تخرج تلامذة عديدون.

لا تسعفنا المصادر كثيراً في أثر الصحابة في الإقراء نظراً لاشتغال المصادر الأولى المتعلقة بالفتوح بالقضايا السياسية والعسكرية، لكننا سنجد إشارات واضحة في عهد التابعين في موضوع الإقراء والتعليم. وفي قضايا وجود بعض المصاحف الخاصة ببعض الصحابة.

٣- بعثة عمر بن عبد العزيز:

تعد البعثة العلمية التي أرسلها الخليفة عمر بن عبد العزيز (١٠١هـ) سنة مائة للهجرة[١] انعطافاً مهماً لترسيخ العلم والعناية بالقرآن؛ وذلك من أجل استدراك أخطاء الخلفاء قبله في التركيز على العمل العسكري والإداري لتنظيم أقاليم المغرب وإفريقية، فكانت هذه البعثة العلمية لترسيخ الإسلام في قلوب المسلمين الجدد، وتفقيههم وتعليمهم الحلال والحرام والسنن وقراءة القرآن.

رأس هذه البعثة التابعي إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر[٢] الذي

(١) عن البعثة العلمية لعمر بن عبد العزيز انظر ابن عذراى : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، (ت ج. س كولان وليفي بروفنسال -٣أجزاء- وإحسان عباس-جزء٤-. بيروت، دار الثقافة-د، ت-ج١ص٤٥/ طبقات أبو العرب ص٨٤/معالم الإيمان ج١ص٦٧

(٢) تهذيب التهذيب ج ١ص١٦٠/معالم الإيمان ج١ص٢٠٣/ طبقات أبو العرب ص٨٤.

تولى ولاية إفريقية وكان زاهداً عالماً، فأسلم على يديه عامة البربر، وكذلك فعل بقية التابعين من البعثة الذين تركوا أثراً واضحاً في ربوع إفريقية.

ويمكن القول أن المغرب الإسلامي عرف مرحلة التوسع في الاختيار للقراءات العثمانية، حيث تعددت المصاحف[1]، ويظهر ذلك في ما بقي من تفسير يحيى بن سلام البصري (٢٠٠هـ)[2] الذي استقر بالقيروان وأملى بها دروسه في التفسير. وظهر تأثّره بالبصريين كثيراً، وقد اختصر تفسيره الإمام ابن أبي زمنين الأندلسي[3].

يمكن القول أنه بحلول القرن الثالث الهجري بدأت الغلبة لثلاث قراءات مشهورة دون الباقي- مع ملاحظة أن استقرار القراءات على

(١) هند شلبي: القراءات بإفريقية من الفتح إل منتصف القرن الخامس الهجري. بيروت، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٥. ص١٥٠.

(٢) في ترجمة يحي بن سلام انظر: طبقات أبو العرب ص١١١/معالم الإيمان ج١ص٢٩٣/ الذهبي شمس الدين: سير أعلام النبلاء. ج٦ص٥١١/ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء ج٢ص٢٧٣.

(٣) ابن أبي زمنين محمد بن عبد الله الألبيري محدث أصولي له: مختصر المدونة، أصول السنة، منتخب الأحكام. توفي سنة(٣٩٩هـ)انظر: ابن فرحون: الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب (ت محمد الأحمدي أبو النور)ط٢، القاهرة، مكتبة دار التراث، ٢٠٠٥. ج١ص٣٨٥/سير أعلام النبلاء ج١٠ص٤٠٦/شذرات الذهب ج٣ص١٥٦/الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨. رقم ١٦٠ص٦٧/ابن بشكوال: كتاب الصلة. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨. رقم١٠٤٧ج٢ص٤٨٢.

السبع كان على يد ابن مجاهد (٣٢٤هـ)[1]- وهذه القراءات التي سادت بالمغرب هي قراءة أبي عمرو البصري، وحمزة الكوفي، ونافع المدني. مع حضور لقراءة ابن عامر بالأندلس بسبب كثرة الشاميين بها. ويمكن العودة بأسباب ذلك إلى :

أ - قراءة أبي عمرو البصري[2]: ويرجع انتشارها لانتساب صاحبها إلى مركز العلم الكبير البصرة، حيث كانت هذه الأخيرة موئل القراء واللغويين، ولارتباط رجالات العلم من حلق أهل الرأي ببغداد بها، ولذلك كثرت المصاحف المكتوبة والمقروءة بها في الأيام الأولى[3]، فضلاً عن ارتباط إباضية المغرب بمركز الدعوة لديهم بالبصرة إذ ورد منها حملة العلم في المذهب الإباضي الذي عمّ طرابلس وبلاد الجريد التونسية والمغرب الأوسط[4].

(١) ابن مجاهد البغدادي أحمد بن موسى. انظر السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، بيروت، دار المعرفة، د-ت ج٢ص١٠٢/سير أعلام النبلاء ج٩ص٤٥٧.

(٢) أبو عمرو بن العلاء التميمي، (ت١٥٤هـ)اشتهرت قراءته بروايتي الدوري والسوسي. انظر غاية النهاية ج١ص٢٦١/الأندرابي أحمد بن عمر المقرىء: قراءات القراء المعروفين بروايات الرواة المشهورين(ت أحمد نصيف الجنابي)ط٣، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦. ص٨٣.

(٣) هند شلبي: القراءات بإفريقية ص٢٠٧.

(٤) البصرة هي مركز أهل الدعوة والاستقامة الإباصية وكان إباضية المغرب يأخذون العلم من حلقها. انظر: الشماخي: كتاب السير، (ت محمد حسن)، ط١، بيروت، دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٩. ج٢ص٢٤٦/مصطفى بن ادريسو: الفكر العقدي عند الإباضية حتى نهاية القرن الثالث الهجري. ط١، القرارة، نشر جمعية التراث، ٢٠٠٣. ص٧٩

ب- قراءة حمزة الكوفي[1]: والسبب في انتشارها وجود تلامذة أفارقة ولجوا الكوفة وتفقهوا بعلمائها، وخاصة أبي حنيفة (١٥٠هـ)، وسفيان الثوري (١٦١هـ) الذي أدخل جامعه في الحديث إلى إفريقية عبد الله بن غانم (١٩٠هـ)[2]، وكذا زميله عبد الله بن فروخ (١٧٥هـ)[3] وهما أيضاً من تلامذة مالك.

كما يرجع انتشارها إلى رسمية المذهب الحنفي أيام دولة الأغالبة[4]، حيث كان هؤلاء على مذهب الدولة العباسي الرسمي فكان أغلب القضاة والمفتين أحنافاً، ومنبع المذهب هو الكوفة حيث كانت قراءة حمزة. وعندما شهدت إفريقية الصراع بين أهل المدينة تلامذة مالك والأحناف أيام محنة خلق القرآن وظهر التدافع بين الفريقين والذي انتهى إلى

(١) حمزة بن أبي حبيب الكوفي، إمام القراء بعد عاصم والأعمش توفي سنة(١٥٦هـ) اشتهرت قراءته بروايتي خلف وخلاد. انظر غاية النهاية ج١ص٢٦١/ الأندرابي : قراءات القراء المعروفين ص١٠٩.

(٢) عبد الله بن غانم الرعيني قاضي إفريقية سمع من مالك وأبي يوسف وسفيان. انظر: طبقات أبي العرب ص١١٦/المعالم ج١ص٢١٥/تهذيب التهذيب ج٢ ص٣٩١/ ترتيب المدارك ج١ص١٧٩.

(٣) تهذيب التهذيب ج٢ص٤٠٢/ طبقات أبي العرب ص١٠٧/الرياض ج١ص١١٣/ عياض القاضي : ترتيب المدارك وتقريب المسالك (ت محمد سالم هاشم)، ط١بيروت دار الكتب العلمية، ١٩٩٨. ج١ص١٩٤.

(٤) انظر في المذهب الحنفي بإفريقية: عبد العزيز المجدوب: الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية. ط١، تونس، دار سحنون، وبيروت، دار ابن حزم، ٢٠٠٨. ص٦٩

السيطرة المالكية بسبب صمودهم دون العراقيين في وجه المذهب الشيعي الإسماعيلي إبان غلبة واستبداد الدولة الفاطمية التي ركبت الصعب والذلول لاجتثاث مذاهب السنة وإلغاء شعائرها كصلاة للتراويح وفرض الأذان الجديد وغير ذلك. وهو ما أدى في النهاية إلى شيوع قراءة نافع المدني كما سيأتي.

ثالثا:التأسيس العلمي لقراءة نافع المدني[1]

لقد سادت قراءة نافع وتأسست علمياً بما كتب فيها ولها في مصنفات المغاربة والأندلسيين حتى شاعت وذاعت وجهل المبتدئون غيرها، فعرف المغاربة هذه القراءة برواية ورش التي يقرأ بها في المغرب الأوسط(الجزائر) والمغرب الأقصى (مراكش)، وبرواية قالون في المغرب الأدنى (تونس وليبيا) ، ويمكن أن نلخص أسباب انتشار قراءة نافع بما يأتي:

١- غلبة مذهب مالك على أهل إفريقية والأندلس، بعوامل عديدة استقصاها الدارسون[2]، ومن أهمها المكانة العلمية والذاتية التي يحظى بها الإمام مالك في أذهان المغاربة، باعتباره وارث علم السلف من الصحابة والتابعين الذين ثووا في المدينة، فضلاً عما اشتهر به من الزهد والصلاح ولزوم الحرم النبوي، وقد شاع عندهم الأثر: "يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم فلا يجدون

(١) نافع بن عبد الرحمان المدني، أخذ عن سبعين من التابعين، توفي سنة(١٦٩هـ) اشتهرت قراءته بروايتي ورش وقالون. انظر غاية النهاية ج٢ص٣٣٠/ الأندرابي : قراءات القراء المعروفين ص٥١.

(٢) انظر محمد بن حسن شرحبيلي: تطور المذهب المالكي في الغرب الإسلامي حتى نهاية العصر المرابطي. المغرب، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠٠٠. ص٤٢.

أعلم من عالم المدينة"[1]، هذا فضلاً عما للمدينة المنورة من هيبة في الذهنية الإسلامية حيث كانت بمنأى عن نزعات الأهواء وصراعات الفرق التي تموج بها الشام والعراق.

٢- رحلات الحج والعمرة التي جعلت من الحجاز الوجهة الأولى في الطلب العلمي، فكان أكثر تلامذة مالك من الجهة الغربية من مصر وما يليها من المغارب الثلاث والأندلس، ومن هؤلاء الذين نشروا المذهب وناصروه عبد الرحمن بن القاسم العتقي (١٩١هـ)[2]، وأبو الحسن علي بن زياد (١٨٣هـ)، والبهلول بن راشد (١٨٣هـ)[3].

إن عوامل انتشار وانتصار مذهب مالك في المغرب الإسلامي تقاسمتها عوامل انتشار واشتهار قراءة نافع، وعلى الخصوص مسألة متابعة السلف والبعد عن الرأي فقد كان نافع"مع علمه بالقرآن ووجوه علومه يتبع النقل والأثر ويتجنب القياس برأيه والنظر"[4] ، وكذلك قضية التلمذة والتلقي من المدرسة المصرية والمدنية، فكثير من طلاب القراءات

---

(١) سنن الترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في عالم المدينة، الحديث رقم٢٦٨٩.

(٢) في ترجمة ابن القاسم العتقي شيخ المدرسة المصرية المالكية انظر: ترتيب المدارك ج١ص٢٥٠/الديباج المذهب ج١ص٤٠٠/ مخلوف محمد : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، بيروت، دار الفكر - د، ت. رقم ٢٤ج١ ص٥٨/ سير أعلام النبلاء ج٦ص٣٦٧/ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د- ت. ج١ص٣٢٩.

(٣) انظر في ترجمة البهلول : ترتيب المدارك ج١ص١٨٨/طبقات أبي العرب ١٢٦/الديباج المذهب، ج١ص٢٨٠.

(٤) الأندرابي : قراءات القراء المعروفين ص٥١.

وجدوا في هذين المركزين العلميين ضالتهم، ومن هؤلاء:

- صقلاب بن زياد القيرواني (١٩٣ هـ) الذي أخذ عن مالك الفقه وعن نافع القراءة [١].
- كردم بن خالد التونسي الذي تتلمذ لنافع في المدينة أيضاً [٢].
- أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المقرئ (٢١٢هـ)[٣].
- أبو يحيى زكريا بن يحيى الوقار المصري الذي قدم إفريقية هرباً من محنة خلق القرآن بمصر[٤].
- أبو عبد الله محمد بن عمر خيرون المعافري[٥] الذي اختص في القراءات وبه اشتهرت قراءة نافع وقد سمع من تلامذة ورش، توفي في سوسة بتونس سنة (٣٠٦هـ) ، بعدما رحل إليه الطلاب من الآفاق.

قال ابن الفرضي : "قدم بقراءة نافع على أهل إفريقية، وكان الغالب على قراءتهم حرف حمزة، ولم يكن يقرأ بحرف نافع إلا خواص حتى قدم ابن

---

(١) طبقات أبي العرب ص١٣٩/المعالم ج١ص١٣٥.
(٢) غاية النهاية ج٢ص٣٢/القراءات بإفريقية ص٢١٧.
(٣) طبقات أبي العرب ص١٦٣/ غاية النهاية ج١ص٤٦٣/تهذيب التهذيب ج٢ ص٤٥٩.
(٤) طبقات أبي العرب ص١٨٢/ترتيب المدارك ج١ص٣٣٥/ ابن فرحون: الديباج المذهب ج١ص٣٢٢/
(٥) بغية الملتمس رقم٦٦٢ص١١٣/ غاية النهاية ج٢ص٢١٧/ شجرة النور الزكية رقم ١٤٦ص٨١.

خيرون فاجتمع إليه الناس، ورحل إليه أهل القيروان من الآفاق."[1]

وإضافة إلى التلمذة المباشرة لنافع أو تلامذته، فإن فقهاء المالكية الأوائل بإفريقية وفي سبيل محاصرة "التمشرق"، كما يسمونه، سواء كان من الأحناف الذي ظهرت لهم بعض السوءات في محنة خلق القرآن، أو من الفاطميين الإسماعيليين الذين أذاقوا المالكية صنوف القهر والاضطهاد ومصادرة الأموال والتضييق على الشعائر السنية، سعوا إلى ترسيخ مذهب أهل المدينة لا على سبيل التشكيك في بقية القراءات، ولكنها الرغبة في واحدية ثقافية في الفقه والعقيدة والقراءة لمحاصرة مسارب المذاهب الأخرى التي تمتح من البصرة والكوفة وهما عش أهل الأهواء كما يقولون.

ولهذا فإننا نجد الموطّد الأهم لمذهب مالك وهو سحنون بن سعيد (٢٤٠هـ) [2] دعا إلى التمسك بقراءة أهل المدينة ممثلين في مقرئهم نافع الذي كان الإمام مالك يقدمه على غيره لسلامة النقل وقربه من مشكاة النبوة، إذ نقل عنه قوله: "قراءة أهل المدينة سنة، قيل له: قراءة نافع؟ قال: نعم."

كما أوصى بعده ابنه محمد بن سحنون (ت٢٥٦هـ)[3] في رسالته

(١) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس رقم١٣٩٥ص٤٨٨.

(٢) في ترجمة سحنون انظر ترتيب المدارك ج١ص٣٣٩/الديباج ج٢ص٢٤/شجرة النور رقم٨٠ ج١ ص٦٩.

(٣) في ترجمة محمد بن سحنون انظر ترتيب المدارك ج١ص٤٢٤/الديباج ج٢ ص١٣٣/ شجرة النور رقم ٨١ص٧٠.

الموجهة إلى المعلمين أن يلتزموا قراءة نافع في تعليم الأولاد وترك ما سواها: "ويلزمه أن يعلمهم ما علم من القراءة الحسنة، وهو مقرأ نافع، ولا بأس إن أقرأهم لغيره ما لم يكن مستبشعاً مثل "يبشرك"[(١)] و"وولده"[(٢)] و"حرم على قرية"[(٣)] وما أشبه هذا" [(٤)].

وإن كنا لا نسلم لابن سحنون وصف المتواتر من القراءات بالمستبشع، فكلها قراءات متواترة، ولكن الظاهر أن شيوع قراءة نافع جعل من غيرها غير مطروق للأسماع، ولذلك عبر عنه بهذا التعبير.

وفي نفس الاتجاه الراغب في فرض الواحدية القرآنية أمر القاضي عبد الله بن طالب (ت٢٧٠هـ)[(٥)] "ألا يقرأ في جامع القيروان إلا بقراءة نافع"[(٦)] وهي استمرارية في الانتصار لمذهب أهل المدينة، إذ سبق وأن كتب ردوده على الأحناف في كتابه "الرد على من خالف مالك ".

---

(١) "بشرك بغلام"سورة مريم الآية ٧. و"يبشرك بكلمة منه"، سورة آل عمران الآية ٤٥. بفتح الياء وسكون الباء، وهي قراءة حمزة والكسائي.

(٢) "وولده إلا خسارا"سورة نوح الآية ٢١. وهي بضم الواو الثانية وإسكان اللام قراءة حمزة والكسائي.

(٣) "حرم على قرية"سورة الأنبياء الآية٩٥. بكسر الحاء وإسكان الراء وهي قراءة حمزة والكسائي وشعبة.

(٤) محمد بن سحنون: كتاب آداب المعلمين. (ت محمود عبد المولى)، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨١. ص٨٢.

(٥) الديباج ج١ص٣٦٦/ شجرة النور رقم ٨٤ص٧١/ابن عذاري ج١ص١٢١.

(٦) عياض: ترتيب المدارك ج١ص٤٨٣.

استمر فقهاء المالكية على الإشادة بقراءة نافع، ومرت الأعراف بالمساجد ألا تكون القراءة إلا بها مع شيوع القراءة والتعليم لغيرها في الحلق العلمية، ولكن القراءة الرسمية لمتولي خطط الخطابة والإمامة لم تكن إلا بها، ولذلك فإنه عندما يند قارئ فيقرأ بغيرها تثور حوله المشكلات والانتقادات من العامة. كما نقل أن بعضهم شنّع على إمام قرأ بقراءة أبي عمرو البصري برواية اليزيدي(٢٠٢هـ)[١] فقال له أحدهم: قد انساغت لك هذه القراءة وإنها حسنة" ، فقال له رجل: ما هي مستوية، قراءة نافع أحسن منها استواء.. "[٢]، فكان جواب الإمام أبي الحسن القابسي (٤٠٣هـ)[٣] توجيه الجميع إلى أن الكل قراءات متواترة.

لقد أحس المغاربة ببعدهم عن مراكز الإقراء والرواية بالمشرق، فعوضوا هذا القصور بالانكباب على خدمة القراءات عامة وقراءة نافع خاصة، وحسناً فعلوا حتى أنهم بزوا غيرهم في ذلك، وصارت مؤلفاتهم المتقدمة والمتأخرة في القراءات والرسم والتفسير مراجع ومقررات لمؤسسات علمية عريقة، فكيف بدأت المسيرة في خدمة القراءات علمياً

---

(١) اليزيدي يحي بن المبارك البصري، أخذ عن حمزة وأبي عمرو وهو أحد العشرة. غاية النهاية ج٢ص٣٧٥/الأندرابي ص٨٥.

(٢) الونشريسي أحمد بن يحي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية و الأندلس والمغرب (ت محمد حجي)، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨١. ج١ص١٨١.

(٣) في ترجمة القابسي انظر: ترتيب المدارك ج٢ص٣٢٣/شجرة النور رقم ٢٣٠ ص٩٧/ ابن كثير أبوالفدا: البداية والنهاية، ط٦، بيروت، دار المعارف، ١٩٨٦. ج١١ص٣٥١/شذرات الذهب ج٣ص١٦٨ /سير أعلام النبلاء ج١٠ ص٣٩٢.

وترسيخ قراءة نافع تطبيقياً ؟

يعود ابن خلدون بهذه الريادة المغربية الأندلسية إلى ما يمكن اعتباره مدينة فاضلة رأسها عالم مستنير في مدينة دانية بشرق الأندلس، حيث يقول في وصف هذه الانطلاقة الوثابة في علم القراءات: "إلى أن ملك بشرق الأندلس مجاهد [1] من موالي العامريين وكان معتنياً بهذا الفن من فنون القرآن، لما أخذه به مولاه المنصور بن أبي عامر. واجتهد في تعليمه وعرضه على ما كان من أئمة القراءة بحضرته، فكان سهمه في ذلك وافراً، واختص مجاهد بعد ذلك بإمارة دانية والجزائر الشرقية، فنفقت بها سوق القراءة لما كان هو من أئمتها"[2].

يحيلنا هذا النص إلى دور السلطة السياسية في العناية بالحركة العلمية، فمن المعلوم أن أرض الأندلس لم تكن خلواً تماماً من القراءات، ولكنها لم تكن بتلك العناية التالية التي وصلت إلى مرحلة الأستاذية، وفي توصيف المرحلة الأولى يقول ابن الجزري:" لم يكن بالأندلس ولا ببلاد المغرب شيء من هذه القراءات إلى أواخر المائة الرابعة، فرحل منهم من روى القراءات ودخل بها"[3].

---

(١) مجاهد بن يوسف العامري مؤسس الدولة العامرية بدانية وميروقة، أديب حافظ عالم بالقرآن. توفي سنة ٤٣٦هـ. انظر: بغية الملتمس رقم١٣٨٠ص٤٧٢/جذوة المقتبس رقم٨٢٩ص٣٥٢.

(٢) ابن خلدون عبد الرحمان: المقدمة. (ت درويش الجويدي) ط٢. صيدا. المكتبة العصرية. ١٩٩٧. ص ٤٠٨.

(٣) ابن الجزري: النشر في القراءات العشر ص٣٤.

لقد نفقت سوق القراءات بالأندلس وتونس خاصة، وقامت لها مدارس، ومن أهم رجالاتها الذين أسهموا في التأليف والكتابة في خلال الدولة العامرية، ما يأتي:

أ - مكي بن أبي طالب القيسي (٤٣٧ هـ)[١]: إمام القراء والمجودين كما يقول ابن الجزري الذي جلس للإقراء أربعين سنة، وخلّف كتباً في الدراية مثل: "الإبانة عن معاني القراءات"[٢]، وهو في العلل، وفي الرواية ترك كتابة "التبصرة في القراءات السبع"[٣]. وفي تجويد القرآن "الرعاية لتجويد القرآن وتحقيق لفظ التلاوة"، ومؤلفاته الخادمة للقرآن تزيد على مائة مصنف. ويمكن اعتباره مع أبي العباس أحمد بن عمر المهدوي التونسي (٤٣٠هـ)[٤] صاحب كتاب"الهداية"، وأبا عمر الطلمنكي (٤٢٠هـ)[٥] والذي أدخل علم القراءة للأندلس، وكان إماماً في القراءات مذكوراً فاضلاً شديداً في كتاب الله، فهؤلاء هم رواد مدرسة القراءات في المغرب الإسلامي.

(١) مكي بن أبي طالب ترجمته في ترتيب المدارك ج٢ص٣٠٤/جذوة المقتبس رقم٨٢٠ص٣٥١/الصلة رقم١٣٩٠ج٢ص٦٣١.

(٢) حقق مرتين مرة على يد محي الدين رمضان وطبع بدمشق سنة١٩٧٩. وأخرى على يد عبد الفتاح إسماعيل شلبي بدار نهضة مصر ١٩٧٩.

(٣) انظر عبد الرحمان العك: تاريخ توثيق القرآن الكريم ص ١٣٩.

(٤) في ترجمة المهدوي التونسي انظر ابن بشكوال: كتاب الصلة رقم١٨٨ج١ص٦٦.

(٥) في ترجمة الطلمنكي أبو عمر انظر ترتيب المدارك ج٢ص٣١٢/جذوة المقتبس رقم١٨٧ص١١٤.

ب- أبو عمر الداني (٤٤٤هـ)[١]: العالم الذي أشرب صدره ما سبقه به متقدموه من الأندلسيين والتونسيين، وقد انتهت إليه رئاسة الإقراء حتى وصفه المشارقة: "بالمقرئ المتقدم وإليه المنتهى في علم القراءات وإتقان القرآن، والقراء خاضعون لتصانيفه، واثقون بنقله في القراءات والرسم والتجويد والابتداء وغير ذلك "[٢].

وقد خلف لنا موسوعته الرائدة "التيسير في القراءات السبع" الذي وصفه ابن خلدون بقوله :"فظهر لعهده أبو عمر الداني وبلغ الغاية في القراءات، ووقفت عليه معرفتها، وانتهت إليه روايته أسانيدها، وتعددت تآليفه فيها، وعوّل الناس عليها وعدلوا عن غيرها "[٣].

ج- الشاطبي : أبو القاسم بن فيرة أبو خلف الضرير (ت٥٩٠هـ)[٤] ،

(١) في ترجمة أبي عمر الداني انظر: البغية رقم١١٨٦ص٤١١/جذوة المقتبس رقم٧٠٢ص٣٠٥/الصلة رقم٨٧٦ج٢ص٤٠٥/غاية النهاية ج١ص٥٠٣.

(٢) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب(ت يوسف الشيخ محمد البقاعي)ط١، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٨. ج٢ص٢٨٦.
وانظر أيضا: انخل بالنتيا : الفكر الأندلسي(ت حسين مؤنس)ط٢، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٨. ص٤٥٨.

(٣) ابن خلدون: المقدمة ص٤٠٨.

(٤) في ترجمة الشاطبي ابن فيرة انظر الديباج ج٢ص١١٦/شذرات الذهب ج٤ص٣٠١/غاية النهاية ج٢ص٢٠/ ابن خلكان أبو العباس شمس الدين: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (يوسف علي طويل ومريم قاسم طويل)ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨. رقم٣٥٧ج٣ص٤٩٨.

الذي جاوز سابقيه في نظم القراءات بمنظومته"حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع المثاني"، وبلغت أبياتها (١٣٧٠) وهو من المستعصي عادة ، " فعمد إلى تهذيب ما دونه أبو عمرو وتلخيصه ، فنظم ذلك كله في قصيدة لغّز فيها أسماء القراء بحروف (أبجد) على ترتيب أحكمه ليتيسر عليه ما قصده من الاختصار، وليكون أسهل للحفظ لأجل نظمها فاستوعب فيها الفن استيعاباً حسناً، وعني الناس بحفظهما وتلقينها الولدان المتعلمين، وجرى العمل على ذلك في أمصار المغرب والأندلس"[(١)] ، ومن ذلك الحين صارت الشاطبية معول الناس والمرجع الأهم في معاهد تحفيظ القرآن الكريم مشرقاً ومغرباً.

لقد برع المغاربة في الإقراء وبرزت كراسي الإقراء في مساجد الأندلس والمغرب في قرطبة وفاس وألمرية والقيروان وبجاية. والمتتبع لكتب التراجم والفهارس والبرامج والأثبات والطبقات والتاريخ والرحلات لا يغفل عن قراء كبار أمثال : عيسى بن محمد بن فتوح الهاشمي(٥٦٠ هـ) صاحب: التقريب والحرش في أصول قراءة قالون وورش"[(٢)] وأبا جعفر ابن الباذش (٥٤٠ هـ)[(٣)] صاحب: " الإقناع في القراءات" قالوا :لم يؤلف مثله، وكتاب" الطرق المتداولة". وكذلك ابن عظيمة أبو الحسن المقرئ (٥٤٣هـ) الذي برع في التجويد وله: "جالب

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ص٤٠٨.

(٢) ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة رقم٢٠٦٩ج٢ص٧٣٠.

(٣) بشكوال: كتاب الصلة رقم١٧٩ج١ص٨٢/بغية الملتمس رقم٤٥٦ص٢٠٠.

الإفادة في مخارج الحروف" وله شرح قصيدة الشقراطيسي (٤٤٦هـ)، وله أيضاً "الفريضة الحمصية في شرح القصيدة الحصرية"[(١)]

إن الصفحات تنوء عن حمل أسماء الأعلام والكتب الدالة على الاعتناء العظيم للمغاربة بالكتاب العزيز حفظاً وتلاوةً وإقراءً. ويكفي في الدلالة على هذا التراث الضخم ضميمة تاريخية متعلقة بكثرة الحفاظ في هذه الأصقاع وشدة ضبطهم للرسم والتجويد وهو أمر مشهود معلوم.

(١) انظر دنش: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين ص٣٩٥/غاية النهاية ج١ص١١٦.

رابعا: جهود المغاربة في الانتصار للقرآن وجدل المخالفين

لقد نفذ القضاء على المغرب الإسلامي أن يكون حصناً منيعاً للقرآن الكريم حفظاً وقراءةً وتلاوةً وتفسيراً، وذلك أن الواحدية الثقافية والمذهبية في صيرورتها التاريخية أدت إلى نفي الفرق المضلة والمذاهب الزائغة عن أهل السنة والجماعة، وهذه الصيرورة هي ثمرة للجهود المتراكمة في إحلال النص الشرعي مكانته في منظومة الحياة الثقافية، وهي الجهود الجليلة التي بذلها العلماء والحكام في ترسيخ تقاليد سائرة حفظت للقرآن مكانته في المساجد والزوايا والرباطات. بل إن هذه الجهود لم تتوان عن رفع السيف ضد الفرق المنحرفة التي ابتدعت قراءات جديدة لبناء ديانات منحرفة ملفقة.

ففي العصر الأول التي سادت فيه مذاهب الخوارج الإباضية والصفرية وهي مذاهب تتخذ من القرآن الكريم أصلاً أصيلاً لمقولاتها لم تكن معركة أهل السنة معهم في أصالة وصحة النص القرآني وإنما في التأويل البعيد لبعض الآيات المتعلقة بالأسماء والأحكام وباقي القضايا العقدية[1].

إلا أنه عندما برز قرن التشيع الاسماعيلي في الدولة الفاطمية اتخذت المعركة منحى آخر في الدفاع عن النص القرآني وإثبات تواتره وعدم تحريفه كما يدعي الشيعة، و خوض معركة عدالة الصحابة وصدقهم، أما

---

(١) انظر إبراهيم التهامي: جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة. ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة ناشرون، ٢٠٠٥. ص٣٦٢.

الأهم في القضية فهو الهجوم والنقض للتأويلات الباطنية لظواهر القرآن التي بالغ فيها الشيعة الإسماعيليون، وجعلوها من أركان العقائد، فحرفوا بذلك عديد النصوص؛ لتستقيم مع عقائدهم الباطلة في عصمة الأئمة[1]، وغير ذلك من التشريعات المنحرفة، كزواج المتعة، والزيادة في الآذان، ومخالفة المأثور من ميراث البنات.

تميِّزت مقاومة أهل السنة لهذا التيار التحريفي بمستويين أحدهما عملي جهادي : قام به الفقهاء في تأليب الناس ضد السلطة، بل والمشاركة في الثورة ضدها كما حصل من تأييدهم لثورة صاحب الحمار أبي يزيد بن فندين الإباضي النكاري[2].

ولقي المالكية العنت الشديد من القتل والمصادرة والنفي، حتى أن كثيرين قضوا في دار النحر والتعذيب. والمصنفات طافحة بهذا الجهاد الذي آتى أكله في حفظ عقائد العامة من تدليس وتلبيس الشيعة الإسماعيليين.

وفي وصف تلك المعركة الجائرة التي استعمل فيها سيف السلطة

---

(١) انظر: الغزالي أبو حامد: فضائح الباطنية، صيدا، المكتبة العصرية، ٢٠٠١. ص٥٩/محمد أحمد الخطيب: الحركات الباطنية في العالم الإسلامي. ط٢، الأردن، مكتبة الأقصى، ١٩٨٦. ص١٠٠.

(٢) انظر ألفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي. (ت عبد الرحمان بدوي)٢١، بيروت، دار الغرب الإسلامي١٩٨١. ص١٦٢. محمود إسماعيل عبد الرزاق: الخوارج في بلاد المغرب حتى منصف القرن الرابع الهجري. الدار البيضاء، دار الثقافة، ١٩٨٥. ص٢٣٧.

ضد أهل السنة ما قاله القابسي أبو الحسن:"إن الذين قتلهم عبيد الله- الفاطمي- وبنوه أربعة آلاف في دار النحر في العذاب من عالم وعابد ؛ ليردوهم عن الترضي عن الصحابة فاختاروا الموت"[(١)].

ومن هذا الجهاد الأحكام القضائية التي صدرت ضد دعاة التشيع في الأندلس - وهي أرض سنية لم تخضع للفاطميين-كما حصل للداعي أبي الخير الإشبيلي الشيعي الذي طعن في القرآن الكريم، وقال: "إن النصف الأخير فيه خرافات، فأفتى القاضي منذر بن سعيد البلوطي (٤٢٠هـ)[(٢)] بقتله، فصلبه وكان نكالاً لغيره "[(٣)].

أما المستوى الثاني في الدفاع عن النص القرآني : فكان في الردود على تحريفات الشيعة الإسماعيليين وإصدار الفتاوى بكفرهم وخروجهم من الملة. حيث ألف الإمام القلانسي القيرواني (٣٥٩هـ) كتابيه "الإمامة"، و"الرد على الرافضة"، وامتحن لذلك بالحبس والتعذيب[(٤)]، كما ألف محمد بن سحنون في الإمامة أيضاً، كما برز في مناظرتهم ومجالاتهم الإمام الحداد أبو عثمان (ت٣٠٢هـ)[(٥)] ، ولشدة لسانه وصلابته في الحق

(١) الدباغ: معالم الإيمان ج٣ص٣٤. وانظر المجدوب : الصراع المذهبي بإفريقية ص ١٨٧.

(٢) في ترجمة منذر بن سعيد انظر: سير أعلام النبلاء ج١٠ص٩٥ /نفح الطيب ج٢ص١٩١/ جذوة المقتبس ص٣٨٤

(٣) إبراهيم التهامي: جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص٣٠٧

(٤) ترتيب المدارك ج٢ص١٦٣/ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية رقم٢١٦.

(٥) في ترجمة أبي سعيد الحداد انظر: معالم الإيمان رقم١٥٨ج٢ص٢٩٥/رياض النفوس ج٢ص٧٥.

شبّهه أهل القيروان بأحمد بن حنبل.

لم ينصرم قرن الشيعة الإسماعيلية حتى برزت نحلتان خطيرتان في بلاد المغرب الأقصى، وشكلتا خطراً على وجود الدين نفسه من حيث انتحال صاحبيهما دعوى النبوة والإدعاء بمجيء قرآن معارض للقرآن الكريم، وهما:

١ - نحلة برغواطة وقرآن صالح بن طريف:

برغواطة حركة مبتدعة تنسب لقبيلة برغواطة البربرية، وقد نهلت من الوثنية المغربية، ومن اليهودية أيضاً [(١)]. وصاحبها هو صالح بن طريف، وقد كان أبوه من أركان الحركة الصفرية الخارجية، وبعد اضطراب أحوال المغرب تزعّم صالح قبيلته، ووصفه المؤرخون بأنه كان من أهل العلم والخير فيهم.

ابتدع صالح بن طريف ديناً جديداً ملفّقاً بين الإسلام والتقاليد الوثنية البربرية وادعى النبوة والوحي، وألف قرآناً مزعوماً بلغت سوره ثمانين سورة، وغلب على عقول أتباعه بالسحر الذي كان عريقاً في جبال المصامدة بالأطلس المغربي.

وصفه ابن خلدون بقوله: "وكان صالح قد حضر مع أبيه حروب ميسرة الصفري، وكان من أهل العلم والخير فيهم، ثم انسلخ من آيات الله، وانتحل دعوى النبوة، وشرع لهم الديانة وادعى أنهأُنزْ لَ عليه قرآن

(١) ألفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي ص١٧٩.

كان يتلو عليهم سوّراً منه، منها سورة الديك والجمل والفيل وآدم ونوح وهاروت وماروت وإبليس"[1].

اعتمد صالح بن طريف في تأصيل نبوته على القرآن، حيث زعم أنه المّهدي وأنه المذكور في قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التحريم: ٤].

تكمّلت هذه الردة الشبيهة بحالة مسيلمة بطقوسها الإسلامية، إذ حافظ صالح بن طريف على المضامين الإسلامية، وأوقع التغيير في شعائر الصلاة والصيام والزواج والصيد. ولم تكن هذه الردة الجماعية خالية من المضمون السياسي، فقد اتخذت شكل التجمع المسلّح الذي ناوأ الخلافة الأموية في الأندلس، وكذا السلطات القبلية في المغرب، حيث شغل المغرب سنين طويلة بحربهم. فحفيده "يونس بن إلياس بن صالح" قاد الحركة المنحرفة ووضع السّيف في أهل المغرب" وقتل من لم يدخل في أمره حتى حرّق مدائن" تامسنا" وما والاها، ويقال أنه حرّق ثلاثمائة وثمانين مدينة واستلحم أهلها بالسّيف"[2]، ودامت حركتهم طويلاً حيث عمّرت قرابة الثلاثة قرون، ولم ينته أمر ردتهم وفسادهم إلا مع كتائب المرابطين، وترسّخ المذهب المالكي ثم حسم أمرهم مع للموحّدين. والمهم أن أتباعه بقوا يقرؤون بهذا القرآن مدداً كثيرة حتى أنهي أمره وعفا أثره بالجهود المذكورة سلفاً.

(١) تاريخ ابن خلدون ج٦ ص٢٤٥ – ٢٤٦

(٢) تاريخ ابن خلدون ج٦ص٢٤٨/ مجموعة المستشرقين: دائرة المعارف الإسلامية، بيروت، دار الفكر١٩٨٨. (مادة برغواطة) ج٣ ص٥١٦

٢- نحلة غمارة وقرآن حاميم :

بموازاة تلك النحلة المنحرفة برز متنبئ آخر وهو"حاميم بن منّ الله"[١]، فعلى غرار صالح بن طريف فإنه شرّعن نبوته بدعوى ورود اسمه في القرآن الكريم، وابتدأت هذه الردة في مستّهل القرن الرابع الهجري، حيث ضعفت الخلافتان الفاطمية في مصر، والأموية في الأندلس، وانقسم المغرب إلى مجموعات قبلية متقاتلة، ممّا انجرّ عنه خراب اقتصادي ومجاعة كبيرة حتى عجز الناس عن دفن الموتى[٢].

ساهمت عزلة جبل "غمارة" في انتشار هذه الردة، كما ساهمت فيه عوامل كثيرة من قبيل شيوع الفكر الخرافي، نتيجة البعد عن المراكز العلمية، وارتباط الناس بشيوخ السحر ومدّعي الكهانة، ومروجي علوم الخط والرمل والتنجيم، وكذا رواج ظاهرة البعّاجين، التي أشار ابن خلدون إلى تمكّنها في المغرب، فقال: "وبالمغرب صنف من هؤلاء المنتحلين لهذه الأعمال السحرية يعرفون بالبعّاجين يشيرون إلى الكساء أو الجلد فيتخرّق، ويشيرون إلى بطون الغنم بالبعج فينبعج.. لقيت منهم جماعة وشاهدت من أفعالهم هذه بذلك "[٣].

في مثل هذه البيئة تمكّن حاميم من نشر دعوته "فاجتمع إليه كثير

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية (مادة حاميم) ج٧ص٢٧٦/ ألفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي ص١٨٨٠.

(٢) بوتشيش القادري: الإسلام السري في المغرب، ط١، مصر، دار سينا، ١٩٩٥، ص٥.

(٣) ابن خلدون: المقدمة ص٤٨٥.

منهم – أي غمارة الغارقين في الجهالة والبعد عن الشرائع بالبداوة والانتباذ عن مواطن الخير – وأقروا بنبوته وشرّع لهم الشرائع والديانات من العبادات والأحكام، ووضع لهم قرآناً كان يتلوه عليهم بلسانهم، ومن كلامه:يا من يخلي البصر ينظر في الدنيا خلني من الذنوب، يا من أخرج موسى من البحر، أمنت بحاميم وبأبيه "أبي خلف منّ الله"، وآمنت "بتابعيت" عمة حاميم.. "[1] .

ربط القرآن الحاميمي المزعوم نفسه بالنبوات السابقة وجعل الإيمان بحاميم وعائلته عقيدة مركزية، وفي الشرائع أسقط ركن الحج، وقلّص الصلوات إلى صلاتي الصبح والمغرب، وفرض الزكاة العشر من كل منتوج، وفرض صيام الأيام الثلاثة الأخيرة من رمضان، وأوجب صيام الأربعاء والخميس إلى الظهر فقط[2].

ومن أجل رواج الديانة فقد كان قرآنها ووصاياها تتداول باللغة البربرية، ولم تنته هذه الردة الجماعية أيضاً إلا بقعقعة السلاح، حيث ذكروا أن الخليفة "عبد الرحمن الناصر"وضع لها حدّاً سنة (٣١٥هـ)، وقيل أن حاميم قتل في حروب مصمودة الداخلية[3]. إلا أن الفضل كله في القضاء على هاتين النحلتين البربريتين المسلحيتن والقرآنين المزعومين واللتين جاوزتا حدود المشروع والمعقول في البيئة الإسلامية، يعود إلى

(١) تاريخ ابن خلدون ج٦ ص٢٥٤.
(٢) الإسلام السري ص ٧٧
(٣) نفسه ص٨٥.

المرابطين الذين أسهموا بمجهودهم العسكري، ثم العلمي بترسيخهم للمذهب المالكي، وبنائهم للرباطات العلمية، واعتنائهم بالتعليم والعلماء.

إن إنهاء أمر هؤلاء المتنبئين وقرآنهم المزعوم لم يكن فقط بالجهد العسكري، وإنما توازى ذلك مع جهد علمي حثيث بذله المرابطون في الدفع بالحركة العلمية وترسيخ مذهب مالك حتى أن سوق الفقهاء نفقت في زمانهم كما يقول المراكشي[١]، ثم في جهود الدولة الموحدية التي أعلت من شأن التعليم القرآني وجعلت طلبة الموحدين الجامعين للقرآن الكريم ومجاميع السنة الصفوة المقدمة في المجتمع. حيث أن ابن تومرت كان لا يقدم على طلبة الموحدين غيرهم، ومن ذلك الحين صار لقب "الطالب" يطلق على المتخصص في القرآن حفظاً وتعليماً.

ولا أدل على هذه الجهود من كثرة الرباطات والزوايا والمدارس الملحقة بالمساجد والأوقاف العديدة على الطلبة في بلاد المغرب الإسلامي، حتى صار المغاربة أمهر أهل الإسلام في حفظ القرآن الكريم.

لم يكن الوصول إلى هذه النتيجة المرضية في الاعتناء بالقرآن الكريم في المغرب الإسلامي(تونس، الجزائر، المغرب الأقصى، شنقيط) بضربة لازب وإنما هي محصلة لجهاد كبير استعصى على الاستعمار الحديث فك مقاليده ولا الانتقاص منه رغم جهود التنصير العديدة[٢] ومحاربة

(١) انظر المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار الأندلس والمغرب ص١٣١.
(٢) انظر في التنصير عمر فروخ ومصطفى خالدي: التبشير والاستعمار. صيدا، المكتبة العصرية، ١٩٨٣. ص١٢٥.

اللغة العربية[1]، ويمكن أن نجمل أسباب هذا الانتصار للقرآن ضد البدع القديمة والاستعمار الحديث فيما يأتي:

- تشريف خدمة القرآن الكريم، فقد كان لهم القدح المعلى في تراتبية المجتمع الإسلامي، فإن اسم الطالب كان يقدح في الأذهان صورة الحامل للدين الذي يستوجب التقدير والتقديم حتى أن كثيراً من العلماء حملوا لقب الطالب طوال مسارهم العلمي.
- كثرة الأوقاف المرصودة على أهل القرآن، إذ أن عديد من المدارس والجامعات كالقيروان والزيتونة وجدت لها أوقاف، وكذا الجامع الكبير بالجزائر الذي قدر المؤرخون مجمل ما رصد لها بما يزيد على ثلث الضياع والدكاكين[2]، وتاريخ الرباطات والزوايا شاهد على دور الوقف في الحفاظ على القرآن الكريم وحافظيه.
- العناية بالرسم العثماني عناية باللغة المقام تشهد به الكتب المنهجية التي ألفها المغاربة، والتي لا تزال عمدة لجان تصحيح المصاحف الشريفة. ومنها منظومة الشريشي الخراز(٨١٧هـ)[3] التي شرحها

---

(١) في جهود الاستعمار لضرب اللغة العربية في الجزائر مثلا انظر: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ط١، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٨. ج٨ص١٣.

(٢) في أقاف الجامع الكبير انظر: سعيدوني ناصر الدين: دراسات أندلسية. ط١، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٣. ص٧٥.

(٣) الخراز الشريشي انظر: سلوة الأنفاس ج٢ص١١٤/ كحالة: معجم المؤلفين ج٣ص٦١٧.

العلامة الحافظ التنسي[1] من الجزائر بكتابه"الطراز في ضبط الخراز"، وكذا عبد الواحد بن عاشر الأنصاري(١٠٤٠هـ)[2] في كتابه"فتح المنان بمورد الظمآن في رسم القرآن". وكذا كتاب "دليل الحيران على مورد الظمآن" للإمام المارغني التونسي.

ولا تزال محاضر وكتاتيب المغرب الإسلامي تلتزم هذا الرسم، بل إن الطالب لا يسلم له بالحفظ إلا بعد الختم وإتقان الرسم العثماني وحفظ منظومات الضبط مثل حجر المخلاة أو المورد أو غيرها.

- الحرص على ترسيخ حفظ القرآن وحده، وذلك بعدم مزجه بأي علم من العلوم أو متن من المتون. وهي طريقة متبعة انتقدها ابن خلدون في زمانه بقوله: "فأما أهل المغرب، فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائله، واختلاف حملة القرآن فيه، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب. وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر أمم المغرب في ولدانهم إلى أن يجاوزوا حد البلوغ إلى الشيبة، وكذا في الكبير إذا راجع مدارسة القرآن بعد طائفة من عمره، فهم

(١) في ترجمة الحافظ التنسي انظر ابن مريم التلمساني المديوني: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. (ت محمد بن أبي شنب)الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٨٥. ص٢٤٨.

(٢) في ترجمة ابن عاشر انظر: الكتاني: سلوة الأنفاس ج٢ص٢٧٥/كحالة: معجم المؤلفين ج٢ص٣٣١.

لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم "[1].

وهذه الشهادة الناقدة لطرائق التعليم محفوظة، ولكن حجر الزاوية فيها هي أنهم"أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم" لا تزال سارية، وهي تدل على الجهد الكبير الذي بلغه المغاربة في ترسيخ تعليم القرآن وحفظه، وبذلك نسي المغاربة بدع الفرق المنحرفة التي حاولت معارضة القرآن.

- ومن المسائل التي ابتدعها المغاربة لترسيخ هيمنة القرآن وحفظه مجالس الإقراء الجماعي التي يتم فيها تكرار القرآن جماعياً، مما لم يكن معهوداً عند السلف، وهي مسألة أثارت خلافاً كبيراً عند فقهاء المالكية، فإن كان الصدر الأول قد ذمها مثل الإمام مالك كما نقل المازري "أن مالكاً كره ذلك في المدونة، ولعله إنما قال ذلك ؛ لأنه لم ير السلف يفعلونه مع حرصهم على الخير".

إلا أن الونشريسي نقل عن المتأخرين أنه مما جرى به العمل عند المالكية، حيث قال:" وجرى الأمر عليه بالمغرب كله، بل والمشرق فيما بلغنا ولا نكير، وما هو إلا من التعاون على البر وعمل الخير ووسيلة لنشاط الكسلان، وقد نصوا على أن حكم الوسائل على حكم المتوسل إليه"[2].

وهو نفس ما أجاب به أبو الحسن القابسي في قراءة الحزب الراتب –

(١) ابن خلدون: المقدمة ص٥٣٦

(٢) الونشريسي: المعيار المعرب ج١١ص٦٠.

وهي العادة المتبعة في المساجد- عندما سئل: عن المجتمعين بعد صلاة الصبح يقرؤون الحزب من القرآن متفقين. فأجاب:" إن كان لما يجدون في ذلك من القوة والنشاط والحفظ والدراسة فلا بأس به"[(١)]. ومنها الالتزام بختمه في تراويح رمضان.

والشاهد أن هذه الوسائل في تحفيظ القرآن ورسمه قد حفظت للقرآن مكانته العالية في حلق المتعلمين وفي نفوس العامة، مما جعل ديار المغاربة حافلة بكثرة الحفاظ.

(١) المصدر نفسه ج١١ص٦٩.

خامسا: جهود المغاربة في تفسير القرآن الكريم

تأخرت جهود المغاربة في تفسير القرآن الكريم عن نظيرتها في المشرق، والعلة في ذلك أن المشرق هو باب الرواية وموئل الصحابة، وكان التفسير في سننه الأولى قائماً على رواية آثار الصحابة وأحاديث النبي ﷺ. وتفاوتت فيه المدارس إقلالاً وإكثاراً، حيث برّزت المدرسة المكية غيرها من مدارس المدينة والكوفة والبصرة[1]. من حيث أنها حوت كبار تلاميذ ابن عباس حبر القرآن كمجاهد وعكرمة وعطاء. إلا أن أثرة من ذلك التفسير سوف تستقر بإفريقية مع عكرمة مولى ابن عباس الذي هو أصل من مغربي بربري، إذ كانت له حلقة القيروان أيام رحلاته العديدة.

إلا أن انبلاج التفسير مع المغرب سيكون مع مفسر مشهور حوى علم المدرسة البصرية ورائدها الحسن البصري وقتادة بن دعامة السدوسي، وهو الإمام يحيى بن سلام البصري الذي استقر بالقيروان وألف تفسيره المشهور الذي عكف عليه المغاربة حفظاً وخاصة لمختصره الذي ألفه الإمام ابن أبي زمنين.

لم يظهر مفسرون كبار قبل القرن الخامس الهجري، وقصارى الأمر كان رواية التفسير المأثور أو الوارد من كتب المشرق كتفسير الواحدي،

(١) انظر الخضيري: تفسير التابعين. ط١، الرياض، دار الوطن، ١٩٩٩. ج١ص٥٨٤.

أو تفسير عبد الرزاق، أو مختصر تفسير الطبري لابن صمادح الأندلسي، والعلة في ذلك راجعة إلى نفور مالكية المغرب الإسلامي من التفسير بالرأي تهيباً لمقام الكتاب العزيز، ولأن التفسير سيولجهم حتماً إلى مناقشات غيرهم في دلالات الآيات، وهو ما كان المالكية يوصدون الباب أمامه. ولم يشذ عن هذا المسلك إلا قلة من العلماء الرافضين للتقليد الشديد الذي رمي به المالكية في عكوفهم الغريب على أقوال مالك وتلامذته مما جعلهم شديدين على غيرهم مغالين في إثبات واحديتهم المذهبية فهم يقولون كما وصفهم المقدسي: "لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك، فإذا ظهروا على حنفي أو شافعي نفوه، وإن عثروا على معتزلي أو شيعي ربما قتلوه ... "[1].

ومن هؤلاء الذين ثاروا على التقليد المذهبي فخدموا الكتاب والحديث الإمام بقي بن مخلد القرطبي (٢٧٢هـ)[2]) والذي كان في جهوده انعطافة كبرى في مسار التأليف في الأندلس[3]، حيث ألف تفسيراً قال عنه ابن حزم[4] : "فهو الكتاب الذي أقطع قطعاً لا استثني فيه، أنه لم

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. ط٢، ليدن، مطبعة بريل، ١٩٠٦. ص٣٣٦.

(٢) في ترجمة بقي بن مخلد انظر: بغية الملتمس رقم ٥٨٤ ص٢٤٥/جذوة المقتبس رقم٣٣١ ص١٧٧/ ابن بشكوال: الصلة رقم٢٨٠ج١ص١١٦/نفح الطيب ج٢ص ٢١٥/سير أعلام النبلاء ج٨ص٤٩٠

(٣) انظر بالنتيا: تاريخ الفكر الأندلسي ص٤٥٨.

(٤) في ترجمة ابن حزم ومعاركه انظر: ابن بشكوال: الصلة رقم٨٩٤ج٢ص٤١٥/ وفيات الأعيان ج٣ص٢٨٤/سير أعلام النبلاء ج١١ص٩٠/نفح الطيب ج٢ ==

يؤلف في الإسلام تفسير مثله ولا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره"[1].

لقد مثلت انفتاحية بقي بن مخلد عن الدليل وخوضه معارك ضد متعصبة المالكية مثل أصبغ بن خليل(٢٧٣هـ) الذي قال: لن يكون في تابوتي رأس خنزير خير من أن يكون فيه مصنف بن أبي شيبة"[2] دافعاً لاشتغال المغاربة والأندلسيين بالتفسير، وهو ما تزاوج مع الاهتمام بعلم القراءات حيث برز مكي بن أبي طالب القيسي بكتابه: الهداية إلى بلوغ النهاية" فكان فاتحة الاهتمام بعلم التفسير الذي بدأ عوده يشتد مع الرحلات التي انتالت نحو المشرق وأفادت من التراث التفسيري المتنامي فيه، ويمكن أن نجمل أهم محطات التفسير في الآتي :

أ- ابن العربي المالكي الأشبيلي(٤٥٣هـ)[3]:

حيث يعد مؤسس التفسير في المدرسة المالكية، وقد أفاد من رحلته

==

ص٢٣٨/ جذوة المقتبس رقم٧٠٨ ص٣٠٨/ بغية الملتمس رقم١٢٠٥ ص٤١٥/ شذرات الذهب ج٣ص٢٩٩

(١) انظر: مصطفى إبراهيم المشيني: مدرسة التفسير بالأندلس ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦. ص٥٧.

(٢) عياض: ترتيب المدارك ج١ص٢٤٩.

(٣) انظر في ترجمة ابن العربي : بغية الملتمس رقم١٧٩ص٩٢/الديباج ج٢ ص١٩٨/ شجرة النور رقم٤٠٨ ج١ ص١٣٦/ سير أعلام النبلاء ج١١ص٣٩٣/ وفيات الأعيان ج٤ ص١١٦/شذرات الذهب ج٤ص١٤١.

المشرقية التي اطلع فيها على المذاهب الفقهية الأخرى، ومسالك استدلالها، فعاد شهاباً وارياً من العلم، وألف كتباً عديدة في الفقه والعقيدة والتفسير، ولكن ريادته الحقيقية هي في تفسير آيات الأحكام حيث ألف كتابه "أحكام القرآن" وعرض فيه الاختلافات الفقهية المتعلقة بآيات الأحكام وفتح للمالكية فتحاً جديداً مصبه الاعتناء بالدليل الأصلي بدل العكوف على الأقوال المنقولة في المدونة المستخرجة والواضحة.

وهو بذلك قد كسر حجاب التقليد الذي هيمن على مالكية المغرب إبان عصر المرابطين، حجاب وصفه المراكشي بقوله: ولم يكن يقرب من أمير المسلمين-علي بن يوسف بن تاشفين- ويحظى عنده إلا من علم علم الفروع، أعنى فروع مالك، فنفقت في ذلك كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها، وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ، فلم يكن أحد من مشاهير ذلك الزمان يعتني بها كل الاعتناء"[(1)].

إلا أن أوسع تفسير لابن العربي قد ألفه في عشرين سنة هو"أنوار الفجر في مجالس الذكر" وقالوا أنه لم ير مثله فيمن سبق، وكان متداولاً في كل أرجاء المغرب [(2)].

(١) المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب. ص١٣١

(٢) سعيد أعراب: مع القاضي أبي بكر بن العربي. ط١، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٣. ص١٢١.

ب- عبد الحق بن عطية الغرناطي (ت٥٤٦)[١]:

أشهر مفسري الأندلس على الإطلاق بكتابه "المحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز" حيث استوعب فيه تراث من سبقه باختصار غير مخل. قال فيه ابن خلدون: "وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب، فلخص تلك التفاسير كلها، وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها، ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس حسن المنحى"[٢]. فلا غرابة أن يعد هذا التفسير إبداعاً في حينه في الانتصار للمأثور والوجيه من القراءات والبلاغة حيث كان سداً أمام تفسير الزمخشري المعتزلي ، وقال فيه شيخ الإسلام ابن تيمية : "وتفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسنة والجماعة، وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري، ولو ذكر كلام السلف الموجود في التفاسير المأثورة عنهم على وجه لكان أحسن وأجمل"[٣]، ولريادته عند المغاربة أثنى عليه من بعده كابن جزي الكلبي وأبي حيان الأندلسي، وقد طار هذا التفسير كل مطار حتى صار مرجعاً للدرس التفسيري، وقد اختصره الثعالبي الجزائري(٨٧٥هـ)[٤] في كتابه الجواهر الحسان في تفسير القرآن[١].

---

(١) في ترجمة عبد الحق بن عطية انظر: بغية الملتمس رقم١١٠٣ص٣٨٩/الصلة رقم٨٣٠ج٢ص٣٨٦/نفح الطيب ج٣ص١٣١/الديباج ج٢ص٤٥/شجرة النور رقم٣٧٤ص١٢٧/سير أعلام النبلاء ج١١ص٦٣٥/معجم كحالة ج٢ص٥٩.

(٢) ابن خلدون: المقدمة ص٤١٠.

(٣) ابن تيمية: مقدمة في أصول التفسير. ط٤، المطبعة السلفية، ١٣٩٩. ص٣٩.

(٤) في ترجمة الثعالبي عبد الرحمان انظر: التنبكتي: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج(ت علي عمر). ط١، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٤.
==

ج- القرطبي أبو عبد الله بن فرج(٦٧١ هـ)[٢]:

مؤلف أهم تفسير أثري فقهي عنونه بـ "الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان" جمع فيه وجوه القراءات وأحكام النسخ وأوجه الإعراب، وركز فيه على القضايا الفقهية حيث أبدع في نقل أقوال السلف والتابعين فضلاً عن الأئمة المتبوعين، مخالفاً بذلك سنن مالكية المغرب في الاقتصار والاقتصاد في الخلاف. وقد اعتنى به العلماء وقدموه على كثير غيره، " وهو من أجل التفاسير وأعظمها نفعاً وأسقط منه القصص والتواريخ وأثبت عوضها أحكام القرآن واستنباط الأدلة وذكر القراءات والإعراب والناسخ والمنسوخ "[٣].

د- ابن جزي الكلبي(٧٤١هـ)[٤]

من القراء الفقهاء اللغويين، وقد سن في كتبه سنة الاختصار وعدم التطويل والاقتصار على الراجح، وذلك في مثل كتابه القوانين الفقهية، أو

==

ج١ص٢٠٠/القرافي: توشيح الديباج وحلية الابتهاج. (ت علي عمر). ط١، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٤. ص١٠١/معجم كحالة ج٢ص١٢٢.

(١) نشر في الجزائر بعناية الدكتور المحقق عمار طالبي في أربعة أجزاء.

(٢) في ترجمة القرطبي المفسر انظر: نفح الطيب ج٢ص٣٤٥/الديباج ج٢ ص٢٤٣/ شجرة النور رقم٦٦٦ ص١٩٧/شذرات الذهب ج٥ ص٣٣٥/ معجم كحالة ج٣ص٥٢

(٣) ابن فرحون: الديباج المذهب ج٢ص٢٤٣.

(٤) في ترجمة ابن جزي: الديباج ج٢ص٢١٥/كفاية المحتاج ج٢ص٤٠/شجرة النور رقم٢٤٦ص٢١٣/معجم كحالة ج٣ص١٠٣

في تفسيره المعروف ب:" التسهيل في علوم التنزيل، وقد كان للعنوان نصيبه في رسم منهج التفسير عنده، والاقتصار على البيان وعدم التعرّض لاختلافات المفسرين واللغويين، وإسقاط الإسناد فضلاً عن إبطال ما خالف اللغة والبيان[1]، وتفسيره من أحسن التفاسير للمبتدئين في الدرس التفسيري.

هـ- أبو حيان الأندلسي(٧٤٥هـ)[2]:

أشهر المفسرين اللغويين والنحويين، وقد أفاد من رحلته المشرقية لينظم هذا الكتاب الموسوم ب" البحر المحيط في تفسير القرآن الكريم"، وقد صدره بمقدمات طويلة في منهج التفسير وشروطه وأدواته، وبالفعل فإن كتابه محيط بأوجه التفسير من قراءات ولغة ونحو وفقه وعقائد، وإن كان الوجه الأبرز له هو اللغة والنحو والانتصار لسيبويه والبصريين، وهو ما يدل على عارضة كبيرة وحصيلة علمية لتراث الأندلس كلها، كما أنه خلّف في القراءات: "الشافع في قراءة نافع "و"الأثير في قراءة ابن كثير"، و"الروض الباسم في قراءة عاصم".

وبهؤلاء ختمت جهود التفسير الكبرى وانقطعت إلا ما كان من

(١) انظر المشيني: مدرسة التفسير بالأندلس ص١٠٢.

(٢) في ترجمة أبي حيان انظر: نفح الطيب ج٣ص١٤١/السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، بيروت، دار المعرفة، د، ت. ج٦ص٣١/شذرات الذهب ج٦ص١٤٥/ الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع(ت صلاح الدين الهواري)، ط١، صيدا، المكتبة العصرية، ٢٠١١. ج٢ص٢٢٠/معجم كحالة ج٣ص٧٤٨.

اختصارات لما سبق كما فعل عبد الرحمن الثعالبي الجزائري في اختصاره لتفسير عطية في كتاب الجواهر الحسان. أو كما فعل البعض من تفسيرات لسور وآيات مخصوصة كالفاتحة مثل تفسير الفاتحة أو غيرها. وكذلك برز لدينا مفسر مشهور في القرن التاسع وهو عبد الكريم المغيلي(٩٠٩هـ)[١]، صاحب مشروع طرد اليهود من منطقة توات بالجزائر. إلا أن تفسيره لم يصل إلينا في حدود المعلوم.

استأنف الدرس التفسيري في المرحلة الحديثة مع أعلام الحركة الإصلاحية، ويمكن التنويه بعلمين مشهورين هما:

أ- عبد الحميد بن باديس الجزائري (١٣٦٠هـ)[٢]:

رائد النهضة ومحيي السنة والطود الأشم الذي وقف ضد الاستعمار الفرنسي، فأحيا العربية والتعليم الإسلامي، وافتتح دروس التفسير الطويلة التي دامت ثلاثاً وعشرين سنة. وجمعت بعض هذه المجالس في

(١) في ترجمة المغيلي محمد بن عبد الكرم انظر: محمد بن عسكر الشفشاوني: دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، ط٣، الدار البيضاء، منشورات مركز التراث الثقافي المغربي. والرباط، مطبعة الكرامة٢٠٠٣ صص١١٧/ أحمد بابا التنبكتي: كفاية المحتاج. ج٢ ص٢١٨/- ابن مريم التلمساني: البستان ص ٢٥٣/العباس بن إبراهيم المراكشي: الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام(تحقيق عبد الوهاب ابن منصور): الرباط،، المطبعة الملكية، ١٩٧٦، رقم٦٢٨، ج٥ص١٠٦.

(٢) عن ابن باديس انظر: عمار طالبي: ابن باديس حياته وآثاره. الجزائر. ط٣، الجزائر، الشركة الجزائرية، ١٩٩٧. ج١.

كتاب"مجالس التذكير من كلام العليم الخبير"[1]، وكان في دروسه على سنن تفسير المنار لمحمد عبده وتلميذه رشيد رضا، حيث ركز فيها على قضايا التعليم والتهذيب والقيم، وكان إلى جمع الكليات أقرب منه إلى التشقيقات اللغوية والخلافات النحوية وغير ذلك.

ب- الطاهر بن عاشور(١٣٩٣هـ)[2]:

إمام جامع الزيتونة والنحوي الأديب الكبير الذي خلف في التفسير موسوعته السامقة "تفسير التحرير والتنوير"، وسار فيه على سنن عجيب في النكات اللغوية واللفتات البلاغية واستنباط الكليات والاهتمام بمقاصد القرآن، وقد صدره بعشر مقدمات في الدرس التفسيري ولا غرو أن اعتبره كثيرون خاتمة المفسرين.

(١) طبع باعتناء وزارة الشؤون الدينية والأوقاف الجزائرية.

(٢) كحالة: معجم المؤلفين ج٣ص٣٦٣.

الخاتمة

إن الإلمام بجهود المغاربة في خدمة النص القرآني من الصعوبة بمكان، وذلك أن هذا الجهد العريض يتطلب عديد الدراسات والبحوث والمسح للموسوعات والتراجم. ولكن بعض التوصيف ضروري لفهم تطور علوم القرآن والقراءات والتفسير في هذا الجزء الكبير من العالم الإسلامي.

إن بذرة الاهتمام قد وضع أسسها الأولى السلف من الصحابة والتابعين الذين وطئت أقدامهم هذه الأرض فاتحين مبشرين هذا الكتاب العزيز الذي له الأثر البالغ في صياغة إنسان جديد وصناعة حياة اجتماعية حميدة بعيدة عن البدع والفرقة والاختلاف. وهو ما أدى إلى نفي المذاهب الضالة والفرق المنحرفة.

إن تطور علم القراءات الكبير بالمغرب والأندلس على يد جهابذته أمثال مكي بن أبي طالب والداني والشاطبي، ورسوخ علم الرسم مع الخراز وابن عاشر، وبروز التفسير والإسهام الكبير من قبل ابن العربي وابن عطية والقرطبي وابن عاشور قد عدّل من صيرورة الدليل لدى مالكية المغرب وجعلهم يستنكفون عن الاكتفاء بكتب الفروع وما تلاها من المختصرات والمعتصرات والحواشي والطرر.

والحصيلة أن الانتصار للنص القرآني يعد ميزة سامقة لدى المغاربة الذين بزوا غيرهم في حفظ الكتاب العزيز من حيث أنهم الأكثر عدداً والأشد حفظاً له لما أسسوه من رباطات وزوايا وأوقاف في المال والوقت من حيث سنهم للحزب الراتب عقب الصلوات، وعدم تقديمهم

للإمامة لمن لم يكن حافظاً خاتماً للقرآن الكريم. وذلك كله من السنن الحسنة في العناية بهذا الكتاب الخاتم المهيمن.


مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center for Qur'anic Studies


جامعة الملك سعود
King Saud University


كرسي القرآن الكريم وعلومه
Chair of Qur'anic Sciences